□ مَعْشَرَ الأيْقاظِ النِّيامِ ، هذِه هِمَّةُ الكَافرينَ □

قد صوَّر الله وأجلى ديْدنَ الكافرين ؛ إذْ قالوا : ﴿ **أنِ امشُوا واصبروا على آلهتكم** ﴾ [ص : ٦] . فماذا قال من سفلتْ همَّتُهم ، من رعاع العوامِّ الذين لا همَّ لهم إلَّا بطونهم وفروجهم ؟.

أصبح دين أحدهم لعقةً على لسانه، يقول: أومن بيوم القيامة.. وكذَب.. ومالكِ يوم الدين ..

ماذا يقول أحدهم.. ممَّن سفلت همَّته حين يسمع عن همَّة الصليبيين واليهود وعُبَّاد الأوثان من اليونان ، في نصرة دينهم وأوطانهم ؟

« إزابيل » صاحبة القميص العتيق :

إنها «إزابيل» بنت «خوان الثاني»، ملكة قشتالة وأسبانيا، تلك الملكة التي كرَّستْ أكثر من ثلاثين سنة من عمرها في سبيل النصرانية الكاثوليكية ، والتي قدَّمت الخدمات والتضحيات في سبيل أسبانيا ودينها .. ونسيت أنها امرأة ، وأقسمت وقطعت عهدًا على نفسها بعدم استبدال قميصها – ثوبها الداخلي – حتى تسقط غرناطة في يدها ، وذلك قبل سنوات عديدة من حدوث التسليم فعلًا ..

إنها إيزابيل التي اعتنت الكنيسة ببناء شخصيتها، ورعتها وحمتها وأوصلتها إلى الحكم ، وأمدَّتها بالمال والرجال .

إنها إيزابيل التي كتب عنها وعن سيرتها «فيرناندو فيثكايينو كاساس»– أشهر القصَّاصين الأسبان – ترجمته الشهيرة : « إيزابيل ... القميص العتيق » ، في نوفمبر سنة ١٩٨٧ ، وصدرت الطبعة الرابعة منه في ديسمبر من العام نفسه ، وطالب الكاتب فيه برفع إيزابيل إلى درجة قدِّيسة .

إنها إيزابيل التي أسقطت ملْك المسلمين لغرناطة والأندلس نهائيًا .

إنها إيزابيل التي وحدت جهود ملوك النصارى ضدَّ المسلمين .

إنها إيزابيل التي رهنتْ مجوهراتِها لدفْعِ مرتبات الجنود ، وكانت تُشرف على المعارك ضدَّ المسلمين بنفسها .

إنها إيزابيل التي أرغمتْ أبا عبد الله الصغير - آخر مَلِك بغرناطة - أن يدفع جزية سنوية قدرها اثنتا عشرة ألف قطعة ذهبية ، وأن يكون تابعًا وفيًّا للملوك الكاثوليك ، يَمثُل أمام البلاط في قشتالة متى استدعى ذلك ، وأن يسلِّم ابنه الصغير رهينة حتى يسلِّم لهم غرناطة ، وأن يقوم بتسليم أربعمائة أسير حالًا ، ومن بعدها ستين أسيرًا سنويًا ، ووُقِّعت معاهدة التسليم في ٢٥ نوفمبر ١٤٩١م، ودخلت إيزابيل ومعها القوات النصرانية إلى غرناطة في ٢ يناير ١٤٩٢م.

إنها إيزابيل صاحبة محاكم التفتيش في أسبانيا، حرَّقتِ المسلمين وهم أحياء.. بل وحرَّقتِ الموتى بعد إخراجهم من قبورهم ، وردَّتهم عن الإسلام ، وصادرت جميع ممتلكاتهم ، حتى لم يبق في الأندلس مئذنة ولا أذان ولا مسلم .

إنها إيزابيل التي موَّلت الرحلة الجنونية لكولومبس لاكتشاف القارة الأمريكية وتنصير العالم الجديد «أمريكا»، وضمِّ ثروات القارة الجديدة للخزينة الأسبانية، وإرسالها للمبشِّرين إلى العالم الجديد لإخضاع وتنصير شعوب أمريكا.

إنها إيزابيل ذات الأهمية العظمى في تاريخ أوربا وأمريكا من خلال المنظور الكاثوليكي[(١)] .

فهذه امرأة طردت المسلمين من الأندلس... ولو لم يكن لها إلَّا هذا لكفاها.

« جولدا مائير » الرجلُ الوحيد في دولة إسرائيل :

مرّ بنا قول بن غوريون عنها - لمّا عادت محمَّلة بخمسين مليون دولار ، بعد حملة تبرُّعاتٍ واسعة في أمريكا في بَدْءِ قيام دولة إسرائيل -: « سيُقال عند كتابة التاريخ:إن امرأة يهودية أحضرتِ المال ، وهي التي صنعت الدولة » .

---

(١) انظر « إيزابيل القميص العتيق » تأليف فيرناندو فيثكاييونو كاساس - دار النفائس .

بل قال عنها ثانية : « إنها الرجل الوحيد في الدولة » .

قالت هذه اليهودية: «لقد كانت مسألة العمل في حركة العمل الصهيوني، تُجبرني على الإخلاص لها ، ونسيان همومي كلها، وأعتقد أن هذا الوضع لم يتغيَّر طِيلة مجرى حياتي في الستة عقود التالية » .

وتقول : لم يُقدَّم لنا الاستقلال على طبق من فضة ، بل حصلنا عليه بعد سنين من النزاع والمعارك ، ويجب أن ندرك بأنفسنا ومِن أخطائنا ، الثمن الغالي للتصميم والعزيمة .

وتقول : « لقد كان علينا الاعتماد على أنفسنا ، ومجابهة أيِّ طارئ بروح بطولية مسئولة » . ولا تعليق .

و « أوساهير » الياباني .. أنموذج لعلوِّ هِمَّة الكافرين في الدنيا؛نقل قوة أوربا إلى اليابان ، ونقل اليابان إلى الغرب :

وهذه قصته التي حكاها الدكتور توفيق الراعي في مجلة « المجتمع » الكويتية . العدد ٩٩٨ ، قال حفظه الله : « أرسلتِ الدولة اليابانية في بدْءِ حضارتها بُعوثًا دراسية إلى ألمانيا ، كما بعثتِ الأمة العربية بعوثًا ، ورجعت بعوث اليابان لتحضرِّ أمتها ، ورجعت بعوثنا خاوية الوفاض !! فما هو السرُّ ؟ لنقرأ هذه القصة حتى نتعرف على الإجابة :

يقول الطالب الياباني «أوساهير» الذي بعثْه حكومته للدراسة في ألمانيا: لوَ أنني اتبعتُ نصائح أستاذي الألماني الذي ذهبتُ لأدرس عليه في جامعة هامبورج ، لَمَا وصلتُ إلى شيء ؛ كانت حكومتي قد أرسلتني لأدرس أصول الميكانيكا العلمية ، كنتُ أحلم بأن أتعلَّم ، كيف أصنع محرِّكًا صغيرًا ؛ كنت أعرف أنَّ لكل صناعة وحدةً أساسية ، أو ما يُسمَّى : « موديل » ، هو أساس الصناعة كلها ، فإذا عرفتَ كيف تصنع وضعت يدك على سرِّ هذه الصناعة كلها ، وبدلًا من أن يأخذني الأساتذة إلى معملٍ ، أو مركز تدريب عمليّ ، أخذوا يعطونني كتبًا لأقرأها ، وقرأتُ حتى عرفتُ نظريات الميكانيكا كلها ،

ولكنني ظللتُ أمام المحرِّك- أيًّا كانت قوته- وكأنني أقف أمام لغز لا يُحلُّ، وفي ذات يوم ، قرأت عن معرض محرِّكات إيطاليةِ الصُّنع ، كان ذلك أول الشهر ، وكان معي راتبي ، وجدتُ في المعرض محرِّكًا قوةَ حصانين ، ثمنُه يعادل مرتبي كلَّه ، فأخرجت الراتب ودفعتُه، وحملتُ المحرِّك ، وكان ثقيلًا جدًّا ، وذهبتُ إلى حجرتي ، ووضعتُه على المنضدة وجعلت أنظر إليه ، كأنني أنظر إلى تاجٍ من الجوهر ، وقلتُ لنفسي : هذا هو سرُّ قوة أوربا ، لو استطعت أن أصنع محرِّكًا كهذا لَغيَّرت تاريخ اليابان ، وطاف بذهني خاطر يقول : إن هذا المحرِّك يتألف من قِطَعٍ ذات أشكال وطبائعَ شتَّى ؛ مغناطيس كحدوة الحصان ، وأسلاك ، وأذرُع دافعة ، وعَجَلات ، وتروس ، وما إلى ذلك ، لو أنني استطعتُ أن أُفكِّكَ قطع هذا المحرِّك وأُعيد تركيبها بالطريقة نفسها التي ركَّبوها بها ، ثم شغَّلتُه فاشتغل ، أكون قد خطوتُ خطوة نحو سرِّ « موديل » الصناعة الأوربية ، وبحثتُ في رفوف الكتب التي عندي ، حتى عثرتُ على الرسوم الخاصة بالمحركات وأخذت ورقًا كثيرًا ، وأتيت بصندوق أدوات العمل ، ومضيتُ أعمل ؛ رسمتُ المحرك ، بعد أن رفعت الغطاء الذي يحمل أجزاءه ، ثم جعلتُ أفكِّكُه قطعةً قطعةً ، وكلما فككتُ قطعة ، رسمتُها على الورقة بغاية الدِّقَّة وأعطيتها رقمًا ، وشيئًا فشيئًا فككْتُه كله ، ثم أعدتُ تركيبه، وشغَّلْتُه فاشتغل ، كاد قلبي يقف من الفرح ، استغرقتِ العملية ثلاثة أيام ، كنتُ آكل في اليوم وجبة واحدة ، ولا أُصيب من النوم إلا ما يمكِّنني من مواصلة العمل .

وحملْتُ النبأ إلى رئيس بعثتنا ، فقال : حسنًا ما فعلتَ ، الآن لا بدَّ أن أختبرك ، سآتيك بمحرِّك متعطِّل ، وعليك أن تفكِّكه ، وتكشف موضع الخطأ وتصحِّحه ، وتجعل هذا المحرِّك العاطل يعمل . وكلفتْني هذه العملية عشرة أيام ، عرفتُ أثناءها مواضع الخلل ، فقد كانت ثلاثٌ من قِطَع المحرِّك بالية متآكلة ، صنعتُ غيرها بيدي ، صنعتها بالمِطْرقة والمبرد .

بعد ذلك قال رئيس البعثة ، وكان بمثابة الكاهن يتولّى قيادتي روحيًا ، قال : عليك الآن أن تصنع القطع بنفسك ، ثم تركّبها محرّكًا . ولكي أستطيع أن أفعل ذلك التحقتُ بمصانع صهْر الحديد ، وصهْر النحاس والألومنيوم ، بدلًا من أن أعدَّ رسالة الدكتوراه كما أراد مني أساتذتي الألمان ، تحولتُ إلى عامل ألبس بذْلةً زرقاء وأقف صاغِرًا إلى جانب عامِل صهْر المعادن ، كنتُ أُطيع أوامره كأنه سيد عظيم ، حتى كنتُ أخدمه وقتَ الأكل، مع أنني من أسرة ساموراي ، ولكنني كنتُ أخدم اليابان ، وفي سبيل اليابان يهون كلُّ شيء . قضيتُ في هذه الدراسات والتدريبات ثماني سنوات ، كنتُ أعمل خلالها ما بين عشر وخمس عشرة ساعة في اليوم ، وبعد انتهاء يوم العمل كنتُ آخذ نوْبة حراسة ، وخلال الليل كنتُ أُراجع قواعد كلِّ صناعة على الطبيعة .

وعَلِم « الميكادو » - الحاكم الياباني - بأمري ، فأرسل لي من ماله الخاصّ، خمسة آلاف جنيه إنجليزي ذهب،اشتريتُ بها أدواتِ مصنع محرّكات كاملة ، وأدوات وآلات ، وعندما أردتُ شحنها إلى اليابان كانت النقود قد فرغت ، فوضعتُ راتبي وكلَّ ما ادخرتُه ، وعندما وصلتُ إلى « نجازاكي » ، قيل لي أن « الميكادو » يريد أن يراني ، قلتُ : لن أستحقَّ مقابلته إلا بعد أن أُنشئ مصنع محرّكات كاملًا ، استغرق ذلك تسع سنوات ، وفي يوم من الأيام حملتُ مع مساعدي عشرة محرِّكات ، (صنع في اليابان) قطعة قطعة ، حملناها إلى القصر ، ودخل « الميكادو » وانحنينَا نُحيِّيه ، وابتسم وقال : هذه أعذب موسيقى سمعتُها في حياتي ، صوتُ محرِّكات يابانية خالصة . هكذا ملكنا « الموديل » وهو سرُّ قوة الغرب ، نقلناه إلى اليابان ، نقلنا قوة أوربا إلى اليابان ، ونقلنا اليابان إلى الغرب »[١] .

(١) مجلة « المجتمع » الكويتية . العدد ٩٩٨ .